

## حضارات متباينة فى الماضى

### وحضارة واحدة فى المستقبل

الدكتور عبد الرحمن بدوى \*

نحن نستشرف الى الاسهام فى الحضارة بالقدر الذى تمكنا به  
قوانا كما فعلنا من قبل فى انشاء الحضارة العربية ، وان كان التاريخ  
لا يقبل الاعادة ولا يتكرر الحديث الواحد فيه مرة اخرى .

فكيف نتسلح بالوسائل التى تكفل لنا القوة على هذه المشاركة ؟ وماذا  
نستهدف من هذه الحضارة ؟

وللجواب عن هذين السؤالين الاصيلين ينبغى أن نحسب حساب  
الأوضاع الطارئة على العالم ، لأننا انما نعمل فى هذا العالم لا فى غيره ،  
ونتأثر بكل مايجرى فيه فعلا ، وانفعالا .

وأبرز سمة فى هذه الأوضاع الطارئة : وحدة العالم اليوم من حيث  
الاتصال .

لقد زالت الحواجز بفضل الأجهزة الإلكترونية ( الراديو والتلفزيون  
واللاسلكى ) وبفضل الصواريخ والأقمار الصناعية والملاحة فى الفضاء ، ولم  
يعد فى وسع قوة مهما كانت أن تحول بين الناس بعضهم وبعض فى اتصال  
المعلومات وتبادل الأنباء . وفى خلال عامين أو ثلاثة لن يكون فى العالم كله  
دولة واحدة خاضعة لدولة أقوى منها .

وهذا العامل الجديد من شأنه أن يغير الأساس الذى كانت تقوم عليه  
الحضارات فى الماضى : أعنى الانفصال والهوات غير المعبورة بين عوالم  
لكل منها روحها وبيئتها ومناظرها وأدواتها .

---

(\*) مجلة الثقافة ، وزارة ( الثقافة والارشاد القومى ) ، العدد الثالث ،

لقد كانت الحضارات تقوم فى الماضى فى مناطق محددة تمام التحديد من حيث المكان ، وتبعاً لهذا أيضاً من حيث الزمان : فكانت الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة الصينية ، والحضارة الهندية ، والحضارة اليونانية الرومانية ، والحضارة العربية ، والحضارة المكسيكية . ولكل منها روحها الخاصة ورموزها الأولى وما يتفرع عن هذه الروح من مظاهر تتبدى فى ألوان النشاط التى تمارسها : من علم وفن ودين وفلسفة وصناعة فنية وقانون ونظام سياسى الخ . وتاريخ هذه الحضارات يشهد على تنوعها واختلاف روحها وتعدد مظاهر نشاط هذه الروح ولا محل للتنازع فى هذا الاختلاف الواضح البين ولا أفهم أبداً أن يجادل أحد فى هذا الاختلاف : من ذا الذى يستطيع أن يقول أن الحضارة اليونانية هى بعينها الحضارة المصرية القديمة ، أو الحضارة العربية ، أو الحضارة الصينية ، أو الهندية أو المكسيكية ؟ !

ولكنى بهذا التقرير للتعدد بين الحضارات وتباين روحها أقرر أيضاً أنه لا محل للتفرقة بين شرق وغرب فيما يتصل بالحضارة . أولاً لأنه لا يوجد شرق مطلق وغرب مطلق ، من الناحية الجغرافية ؛ بل الشرق شرق بالنسبة الى مايقع غربيه ، والغرب غرب بالنسبة الى مايقع شرقيه فالهند غرب بالنسبة الى الصين واليابان ، والشرق الأدنى ( أو الأوسط ) غرب بالنسبة الى الهند ، وأوروبا الغربية شرق بالنسبة الى أمريكا ، وأمريكا شرق بالنسبة الى اليابان ، وهكذا - لسبب بسيط جداً وهو أن الأرض كروية ، ومادامت كروية فليس فيها شرق مطلق ولا غرب مطلق ، بل كل ما فيها شرق وغرب فى أن واحد : شرق بالنسبة الى مايقع غربيه ، وغرب بالنسبة الى مايقع شرقيه .

وعلى هذا فلا محل للتفرقة بين شرق وغرب أساساً ، فهذه تفرقة وهمية لا أصل لها ، رغم انتشارها كأنها من المسلمات ، منذ الحروب الصليبية خصوصاً .

هذا فيما يتصل بالتاريخ العام منذ فجره حتى القرن العشرين : حضارات متعددة ، كل منها تكون دائرة مغلقة ، محددة زماناً ومكاناً ، ولها روحها الخاصة ، وبهذه الروح تطبع كل ما يصدر عنها فى كل مرافق الحياة والانتاج الإنسانى .

أما فى القرن العشرين فقد أحدث التكنيك ( الصناعة الفنية ) انقلابا محوريا وأهم انجازاته : الطيران ، واللاسلكى ، والصواريخ ، والأقمار الصناعية وما عسى أن يستجد فى ميدان الملاحقة فى الفضاء والفيزياء النووية . بل إن أدوات التدمير الجماعية الجديدة ( من قنبلة ذرية وقنبلة هيدروجينية وكوبلتية ) لهى من العوامل الحاسمة فى توحيد العالم معنويا ، بسبب التكافل فى الشعور الجماعى بالأخطار التى تتهدد الانسانية بأسرها فى أى مكان كانت والى أى جنسية أو لغة أو دين انتسبت .

فاذا تقرررت هذه الواقعة ، واقعة اتجاه العالم نحو التوحيد بحيث يصير عالما واحدا أو جسما واحدا ، فإن من الواضح أنه لم يعد ثم محل للاعتبارات القديمة التقليدية .

وأول هذه الاعتبارات السؤال : الى أى حد نشارك فى نتاج العالم ، بالمعنيين : المادى والروحى ، والروحى نقصد به كل ما يصدر عن الفكر الانسانى ؟

فقد أصبح سؤالا غير وارد كما يقال ، لأنه وقد سار العالم فى التوحيد فلا محل للممتنع عن المشاركة فى إنتاج العالم كله بمختلف تياراته واتجاهاته وانجازاته . لأن من يأخذ شيئا دون أن يشارك فى الكل ، يفقد الشئ نفسه مع الكل ، وأنه لا يوجد شئ منعزلا قائما برأسه ، بل كل انجاز أو نظرية أو تيار أو مذهب يرتبط عضويا بكل لا ينفصل عنه . وكما أنك لا تستطيع أن تركيب جهازا من عدة أجهزة نوات نظم مختلفة ، ولا كأننا حيا من أعضاء شتى تنتمسب الى كائنات متباينة ، كذلك لا تستطيع أن تأخذ جانبا أو نظرية أو مذهبيا دون أن تأخذ الكل أو الجهاز الذى يندرج فيه وينتمسب اليه . ولهذا ينبغى اذا أردنا أن نسبهم فى هذا الكل الحضارى الذى يسعى العالم الى تأليفه - أقول : ينبغى أن نأخذ الكل أو المركب بكامل أجزائه ، وبالروح التى تسوده ، وبالطريقة العضوية التى تمسك به .

ومعنى هذا أن نفتح كل الأوردة لتلقى الدم الذى يمكس الحياة فينا ويمكن بنيتنا من الحياة ثم الانتاج والابداع والاسهام فى فعل الخلق الحضارى . يجب أن نفتح نوافذنا للأشعة كلها من أية ناحية جاءت ، فندرس وتعمق ونتمثل كل المذاهب والتيارات والنظريات الفكرية والعلمية ، ولا بد سينبثق عن هذه الدراسة المتعمقة النافذة الشاملة المركب الفكرى الذى سيكون

اداتنا فى الابداع الفكرى والخلق العلمى والابتكار الحضارى . وكل حد  
أو قصر فى هذه الناحية لابد محدث أثره السىء : أعنى حد قدرتنا على  
الابتكار واصابة قوانا بالقصور عن المشاركة .

ولنا فى الحضارة العربية نفسها خير أسوة فى هذا الأمر : ألم تأخذ  
من كل الحضارات : اليونانية والرومانية والفارسية والهندية والصينية -  
دون استثناء ؟ هل امتنعت من المشاركة فى كل ضروب التراث الفكرى  
للانسانية ؟ هل قالت : لا ، هذه حضارة وثنية ، وتلك حضارة لا تقول  
بالمنبوات ، واذن فليس لى أن آخذ عنها ؟ صحيح أن بعض الأصوات قد  
ارتفعت لتعلن سخطها على التآثر والأخذ والمشاركة فى هذه الحضارات  
الأخرى ، ولكنها أصوات منكرة لم يكن لها أى شأن فى ايجاد هذه الحضارة  
الزاهية العظيمة . والافما دور ابن قتيبة والسيرافى وابن تيمية وابن الصلاح  
- ممن صاحوا فى وجه هذه التيارات غير العربية - لو قورن بدور أمثال  
الفارابى ومحمد بن زكريا الرازى وابن سينا وابن رشد والبنائى والخوارزمى  
والبيرونى ؟ ! ان دور الأولين دور سلبى تافه لا قيمة له فى ايجاد الحضارة  
العربية العظيمة ، بل كانوا بمثابة مسامير تريد أن تخرق عجلات الحضارة ،  
وهيئات هيئات ! أن ما ترجم عن اليونانية واللاتينية ( أروسيوس ) والهندية  
( كتب الحساب والفلك ) والفارسية ( كتب السياسة والحكم والقصص )  
فى القرون الثانى والثالث والرابع والخامس للهجرة من مؤلفات علمية  
وفلسفية أكبر بعشرات المرات كما وكيفا ( وخصوصا كيفا ) من كل ماترجمناه  
منذ القرن السابع عشر حتى القرن العشرين عن الحضارة الأوربية وغيرها  
ومن هنا كان تخلفنا تخلفا بارزا ، وكأنت مساهمة العرب فى ايجاد حضارة  
جديدة . ولو استمع العرب فى تلك القرون الى الصيحات المبكرة التى أطلقها  
أمثال هؤلاء الذين أشرنا اليهم من قبل ، لما كان ثم مايعرف اليوم ويذكر  
وينوه به : أعنى الحضارة العربية الزاهرة العظيمة الأثر بين الحضارات  
الانسانية .

والنتيجة الأولى اذن هى أنه ينبغى علينا أن نشارك فى الفكر العالمى  
كله أيا كان مصدره : ندرسه ونتعمقه وننفذ الى صميمه ونتمثله . فاذا نبذنا  
شيئا نبذه عن علم عميق واثقان ، واذا أخذنا بشيء منه أخذنا عن وعى  
كامل ونقد فاحص وتمثل صحيح .

★ ★ ★

واعتبار ثان يبنى على تفرقة وهمية هي الأخرى ، هي التفرقة بين  
المادية والروحية فى الحضارة والانتاج الانسانى .

فما من انجاز مادي ( صناعة فنية وما إليها ) الا وكان أساسه  
والأصل فى تحقيقه نظرية فكرية عقلية فالآلات والمخترعات والاكتشافات فى  
مختلف فروع العلم كلها نبات نظريات علمية ، أى روحية خالصة .  
وما تقدمت الصناعة الفنية الا بفضل تقدم البحث العلمى الخالص غير  
المستهدف أساسا الى التطبيق العملى . والفكر والتطبيق يسيران متواكبين  
متنازعين لا يتقدم أحدهما الا بتقدم الآخر ، ومن الوهم الفاحش أن نضع  
الواحد فى مضادة الآخر . فنظريات الميكانيكا العقلية والفيزياء النظرية  
هى التى أدت الى اختراع الآلات والأجهزة ، والأجهزة والآلات بدورها تساعد  
على تقدم البحث العلمى بما تيسره من امكانيات لا تتوافر بغيرها : فمن هو  
العالم الذى يكتشف نظريات أو أنظمة علمية فلكية دون أن يستعين بالأجهزة  
والآلات ! وهل سيتقدم علم الفلك الا بفضل الصواريخ والأقمار الصناعية ؟  
أو هل يتقدم الطب النظرى الا بفضل الأجهزة العلمية ( من مجهرات ومحرات

أما الذين يتحدثون عن الروحية والمادية فى هذا المضمار فانما يفرقون  
بين مفهومين مختلفين تماما : انهم يفهمون الروحية بمعنى الخوارق والسحر  
وما يتجاوز نطاق العقل - فان كان هذا قصدهم من الروحية فمن المسلم لهم  
تماما بأن هذه الروحية - المزعومة - تختلف كل الاختلاف عن المادية بمعنى  
التفسير العقلى القائم على التجريب والملاحظة ثم الاستقراء والاستدلال .  
انما الروحية التى نقصدها هنا ونفهم منها أنها لا تفترق عن المادية ، بل  
تلازمها وجودا وعدما ، هى النزعة العقلية العلمية المبنية على مناهج البحث  
العلمى السليم .

وقد لاحظنا أن الذين يصفون « الشرق » ( بالمعنى الذى يقصدونه )  
بالروحية انما يفهمون من الروحية هذا المعنى ، أى الايمان بالخوارق  
والمعجزات والغيبيات ، ومن هنا يلتاث الفهم ولا يتضح المقصود ، فضلا عن  
أن فى هذا تعميما لا محل له فالفكر الصينى أبعد ما يكون عن هذا ، بل هو  
عملى « مادي » حسى يقصر نفسه على الحياة الدنيا أنه لون من حكمة

الحياة فى جانبه الأخلاقى وصناعة فنية دقيقة فى جانبه العملى الدنيوى .

\* \* \*

وخلصه الرأى عندنا :

أنه ينبغى أولا أن نطرح هذه التفرقة بين شرق وغرب ، وأن نطرح التفرقة بين حضارة مادية وحضارة روحية ( أى عقلية ) .

وثانيا أن نقرر أن التاريخ العالمى حتى هذا القرن العشرين كان منقسما الى حضارات متباينة مختلفة لكل منها روحها الخاصة ، وتكون ذاتها مقفلة على نفسها .

أما فى القرن العشرين ، نتيجة التقدم الهائل فى وسائل التواصل والتخاطب بين الناس ، فإن الحضارة تسعى الى أن تكون وحدة متحدة ، ولا بد من المشاركة فيها كلها وبوصفها كلا حتى الابداع فيها والأخذ بقسط حقيقى منها .